

# مدينة الزهراء (ع) للاندلسية

د. علي أحمد

**فلا** الحديث عن بناء مدينة الزهراء وبانيها الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله (عبد الرحمن الثالث) لا بد من القول ان الوقوف أمام ذلك البناء الرائع ، وأمام تلك الحضارة المتقدمة التي أنشأته ، وأمام العزيمة القوية والصادقة التي أوجدت تلك الحضارة ، ليس لأجل المباهاة والمفاخرة بالمجد العظيم الذي كان لأجدادنا ، لأن في ثنايا هذا المجد والتفاخر البراق اعترافاً بالمهانة والتقصير يسبب لنا الألم والحزن العميق ، وإنما الذي ننشده ونريده من خلال استعراض هذه الزاوية الصغيرة من تاريخنا المشرق ، هو أن نتذكر ، ونحن نعيش وقتاً من أصعب الأوقات التي مرت بها أمتنا العربية ، الى أي مدى استطعنا ، أن نقود العالم ونوجهه في ميدان المدنية والعمران ، وما هي المنجزات التي خلفناها خلال القرون الثلاثة الأولى ؟

انقضى القرن الثالث الهجري في الجناح الغربي من ديار العرب والاسلام ( الأندلس ) بانقضاء زمن الأمير الأموي عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن الداخل<sup>(١)</sup> ، الذي باغته الموت سنة ٣٠٠ هـ - ٩١٣ م وترك عدداً كبيراً من الأولاد الصغار ، بلغوا من الذكور فقط عشرة ، وكان للأمير المتوفى بعض الاخوة الذين لم يكونوا على مستوى المسؤولية ، مما أفسح المجال أمام حفيده عبد الرحمن الناصر لدين الله ، وكان شاباً في مقتبل العمر ، فتصدى الشاب الى الامارة واجتازها دون أعماه وأعمامه ، في وقت كانت فيه الأندلس تضطرم بنيران المتغلبين والطامعين ، فأخذ تلك النيران ، وقضى على حركات

العصيان والتمرد<sup>(٢)</sup> ، فاستقامت له الأندلس بعد نضالات قاسية ومريرة ،  
استغرقت حوالي ربع قرن من الزمان<sup>(٣)</sup> .

أما في الجناح الشرقي من ديار العرب والاسلام ، فقد كان العباسيون يتألمون  
بقوة من النتائج التي تمخضت عن غلظتهم السياسية الكبيرة التي اقترفوها في وقت  
من أوقات حكمهم ، وهي تحولهم عن العنصر العربي ، الذي قامت على جماجم  
رجالهم دولتهم القوية ومجدهم العظيم ، واعتمدوا على الغرباء من الغزو الغلمان  
والأتراك المماليك ، الذين كانوا لا يمتلكون ذلك العقل النير الذي راضته العروبة  
ولا القلب الذي هذبه وصقله الدين الاسلامي الحنيف ، بل انتقلوا الى الاسلام  
بخشونة الجهل ، يحملون رايات الظلم ، لبسوا الاسلام على أبدانهم ولم ينفذ  
شيء منه الى ضمائرهم ، فغاب ضوء السلام والهدوء عن ديار العروبة  
والاسلام في المشرق ، واضطرب أمر الخلافة ، وتحكم الغرباء من الترك بخلفاء بني  
العباس ، ووصلت الأخبار من بغداد الى قرطبة سنة ٣٢٠ هـ - ٩٣٣ م ، أن  
مؤنساً أحد ضباط هؤلاء الأتراك ، سار من مدينة الموصل الى بغداد بجنوده  
فسيكوا دم الخليفة العباسي المقتدر بالله<sup>(٤)</sup> وأسقطوا هيبة الخلافة من نفوس الشعب  
العربي الاسلامي والأجنبي .

وقبل ذلك كانت جميع الدول المستقلة في المغرب العربي<sup>(٥)</sup> ، قد سقطت تحت  
ضربات الفاطميين ، الذين أعلنوا أنفسهم خلفاء هناك ، مما شجع الناصر لدين الله  
في الأندلس ، على اعلان الخلافة الأموية فيها ، وأقره على ذلك جميع علماء  
الأندلس ومفكروها<sup>(٦)</sup> ، فتقلب بالقباب الخلافة ، التي كان لها رونق مميز أخذته  
من العلم والعمران ، وهيبة حاطتها بهاتجيات الجيوش وعزة السلطان ، فوصلت  
عساكر الأندلس الى مواقع متقدمة من بلاد الفرنجة في عهد الناصر لدين الله ، لم  
تتمكن من أن تصلها في أيام جده عبد الله ومدت اليه أمم أوروبا يد الازعان ،  
وأوفدوا عليه هداياهم وسفاراتهم من روما والقسطنطينية من أجل الحصول على السلام  
والمهادنة ، ووصل الى حيث اقامته في قرطبة ملوك الأندلس المتأخين لبلاده ، فقبلوا  
يده وطلبوا رضاه ، واستمال الى طاعته الأدارسة في المغرب الأقصى وملوك زناتة<sup>(٧)</sup> .  
وهكذا بعد مرور ربع قرن تقريباً على تسلّم الناصر لدين الله سدة الحكم  
العربي في الأندلس ، ماتت سرية له فتركت مالا كثيراً جداً<sup>(٨)</sup> فأمر الناصر أن

يفك بذلك المال أسرى من العرب المسلمين، وطلب في بلاد الفرنجة أسيراً فلم يجد ، فشكر الله على ذلك . وكانت الرغبة في العمران مستقرة يومئذ في قلوب رجال الدولة العربية الاسلامية وعقولهم ، فقالت له الزهراء زوجته : « اشتهيت لو بنيت لي مدينة سميتها باسمي وتكون خاصة لي » فكان ذلك أحد الأسباب القوية في دفع الناصر الى البدء بعملية بناء مدينة الزهراء . وأما السبب الرئيسي في ذلك فيعود الى رغبة أكيدة تولدت عند الناصر لدين الله ، يخلد نفسه من خلالها ، ولا بد أن هذه الرغبة تطورت أكثر بعد اعلان نفسه خليفة ، الأمر الذي يفرض عليه أن يحيط نفسه بأبهة معينة من قصور وبناء للخدم والحشم والنساء ، ورجال الدولة من وزراء وغيرهم .

بنيت مدينة الزهراء الى الشمال من مدينة قرطبة في سفح جبل عروس الجنوبي على هيئة مستطيل طوله حوالي ١٥٠٠ م وعرضه ٧٥٠ م ، وعلى ثلاثة مسطحات متدرجة في الارتفاع . وتبعد عن قرطبة حوالي خمسة أميال ، يجري بينهما نهر الوادي الكبير العظيم ، التي تقوم الزهراء على ضفته<sup>(٩)</sup> وقد احتوت على أبنية وقصور مختلفة للخليفة والوزراء والنساء على هيئة ما كان في قرطبة ، التي كانت أكثر حظاً في البقاء والديمومة والاستمرار<sup>(١٠)</sup> . والحقيقة أن بناء الزهراء كان أعجوبة من أعاجيب الدنيا في ذلك الحين ، لم يخطر مثل مخططها على بال أحد من المهندسين . فاذا خرج الانسان من باب قرطبة الشمالي في الطريق الذي تقع على يساره رصافة عبد الرحمن الداخل<sup>(١١)</sup> سائراً على ضفاف نهر الوادي الكبير ، بين غابات كثيفة ورياض غناء واسعة ، لا يلبث ساعتين أو ثلاثاً حتى يبدو له باب هائل في هيئته ، دقيق في صنعته وجماله وابداعه ، وهو باب مدينة الزهراء ، الذي يتصل به من جانبيه سور عظيم يحيط بالمدينة وفيه ثلاثمائة برج حربي ، فاذا دخل من هذا الباب ، وصل حدائق غناء وميادين رحبة واسعة الأرجاء ، تطل عليها من قصور أعيان المملكة ورجال الدولة مبان رائعة . فيستمر سائراً بين هذه الميادين حتى يصل الى «باب الأقباء» وهو أول أبواب القصر ، ومن خلفه مظاهر السؤدد وأنواع المحاسن ، يليها «باب السدة الأعظم» . وفي صدر هذه الجنان «السطح المرمد» المشرف على الروضة ، المباهي بمجلس الذهب والقبية<sup>(١٢)</sup> وروعة ما تضمنه من اتقان في الصنعة ، وتنوع أصناف الكسوة ، ما بين مرمر وذهب وعمد هائلة كأنها صبت في قوالب أعدت لذلك ، ونقوش وبرك كبيرة

دقيقة الصنعة ، وحياض وتماثيل عجيبية ، يصعب على الانسان وصفها في كثير الأحيان • وفي السطح الممرد من جانب القبلة « الأبهاء المذهبة » يتصل بها « الفصلان » عن يمينها ويسارها ، ويلى ذلك « المجلسان » شرقاً وغرباً •

وان القاعات المتعددة التي احتوتها الأبهاء المذهبة ، وما اتصل بها من قاعات الفصلين والمجلسين لا تكاد تتمايز إلا بتنوع مشاهدتها ، واختلاف مناظرها • وهذا ما جعلها صالحة كلها لسرير الملك ، فكان هذا السرير في « البهو الأوسط » من الأبهاء القبليّة المذهبة يوم احتفل الخليفة الحكم المستنصر بأخذ البيعة لنفسه غداة وفاة والده عبد الرحمن الناصر لدين الله (١٢) ثم كان سرير الملك في « المجلس الشرقي » من مجالس « السطح الممرد » يوم تشرف ملك الأسبان أردون بن أدفونش بالمثل بين يدي الحكم المستنصر وحظي بتقبيل يده في احتفال ندر أن حدث مثيل له في ذلك الوقت (١٤) •

وكان المجلس الشرقي يسمى إضافة الى ذلك « المؤنس » وفيه « بيت المنام » • وفي وسطه نصب « الحوض الأخضر المنقوش » الذي جلبه أحمد الفيلسوف مع ربيع الأسقف القادم من بيت المقدس (١٩) ، وهو حوض مذهب ، وفيه نقوش وتماثيل وصور على هيئة صور الانسان ، وأقيم عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر الغالي النفيس ، مما عمل بدار الصناعة بمدينة قرطبة ، صورة أسد الى جانبه غزال الى جانبه تمساح وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفي الجانبين حمامة وشاهين ودجاجة وطاووس وحدأة وديك ونسر ، وكل ذلك من ذهب مرصع بالجواهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها •

وفي الزهراء أيضاً المجلس المسمى « قصر الخلافة » (١٦) وكان سمكه من الذهب الرخام الغليظ الصافي لونه ، من مختلف الأجناس وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك • وجعلت في وسطه « اليتيمة » التي أتحف الناصر بها ( أليون ) ملك القسطنطينية ، وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة • وفي وسط مجلس الخلافة حوض عظيم مملوء بانزئبق • وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر ، قامت على سواري من الرخام الملون والبللور الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك

نور يأخذ بالأبصار . وكان الناصر لدين الله ، إذا شاء أن يفزع أحداً من أهل مجلسه ، أو ما إلى أحد مواليه فيحرك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيّل لكل من في المجلس أن المكان قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك (١٧) .

وللقصر مسجد جامع مؤلف من خمسة أبهاء رائعة الصنعة فريدة في ذلك ، طوله من القبلة إلى الجوف - عدا المقصورة - ٣٠ ذراعاً وعرض البهو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغرب ١٣ ذراعاً ، وعرض كل بهو من الأبهاء الأربعة المكتنفة له ١٢ ذراعاً ، وطول صحنه المكشوف من القبلة إلى الجوف ٤٣ ذراعاً ، وعرضه من الشرق إلى الغرب ٤١ ذراعاً . وجميعه مفروش بالرخام ذي اللون الخمري ، وفي وسطه فوارة يجري فيها الماء . فطول هذا المسجد أجمع من القبلة إلى الجوف - عدا المحراب - ٩٧ ذراعاً ، وعرضه من الشرق إلى الغرب ٥٩ ذراعاً . وطول صومعته في الهواء ٤٠ ذراعاً وعرضها ١٠ أذرع في مثلها . ومنبره جميل في غاية الحسن والروعة ، كانت حوله مقصورة دقيقة الصنعة والتصميم (١٨) .

وقد تخير الناصر لدين الله للخطابة على منبر الزهراء خطيباً عرف بالتقى والصراحة بقول الحق والجهر به ، دون شعور بالخوف أو حاجة إلى محاباة أو شطط أو غير ذلك من هذا القبيل ، هذا الخطيب هو القاضي منذر بن سعيد البلوطي ، الذي عرف عن كلامه المتزن ، وعبارته الجزلة المتقنة . وكان له في انتقاد أعمال الدولة كلام يلقيه من منبر الزهراء هذا على مسمع الخليفة في محضر الناس ، فيتلقاه الخليفة بالرضى والقبول والخشوع لله ، ولو ألقى مثله على أكثر الحكام تسامحاً وديمقراطية في الأمم الأخرى ، لكان أقل ما يعاقب به قائله العزل والتضييق (١٩) .

وكانت خزانة الكتب العلمية في مدينة الزهراء أيام الخليفة الحكم المستنصر من أعظم خزائن الأرض آنذاك . فقد روى تليد الفتى القيم على هذه الخزانة ، أن عدة الفهارس التي فيها تسمية الكتب ٤٤ فهرسة في كل فهرسة ٢٠ ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين فقط (٢٠) . وساعد على ذلك اهتمام الخليفة الحكم المستنصر بالعلم بصورة مميزة عن جميع حكام الأندلس ، فقد كان عالماً نبياً صافياً السريرة . أخذ العلم عن قاسم بن أصبغ وأحمد بن رحيم ومحمد بن عبد السلام والخشني وزكريا بن خطاب ، وأجاز له ثابت بن قاسم ، وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء ،

وكان يستجلب المصنفات العلمية من الأقاليم والبلدان باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه . وكان ذا حب بها ، قد أثر ذلك على لذات الملوك ، وتميز بصورة خاصة في معرفة الرجال والأخبار والأنساب ، وكان ثقة فيما ينقله ويقول في هذا الميدان . وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان ، ويكتب نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده (٢١) .

وفي مدينة الزهراء «البحيرة العظمى» غير ما فيها من البرك المتعددة ، وفي مياهها من صنوف الأسماك والحيتان الألوف الكثيرة ، وكانوا يقدرون عدد الخبز الذي يُرمى لهذه الحيتان والأسماك باثني عشر ألف خبزة في كل يوم ، وينقع لها من الحمص ستة أقفزة يومياً .

وقصور الحرم في الزهراء هي غير ما وصفناه في مجالس الدولة ، وقد تزيد عن هذه عظمة ورونقاً . وقد ذكر ابن العربي في محاضرة الأبرار ، على أن صورة «الزهراء» زوجة الناصر كانت منقوشة على باب القصر . وفي الزهراء حمامان أحدهما للقصر ، والثاني لعامة الناس .

وفيها محلات للحيوانات فسيحة الفناء ، ومحلات للطيور مظلمة (٢٢) بالشباك .

وفيها دور الصناعة والآلات : آلات السلاح للحرب ، والحلي للزينة ، ومصانع التماثيل والنحت والزخارف ، وغير ذلك من المهن والصناعات .

ولم تغل الزهراء إلى جانب هذه الأمكنة الراقية من سجن يسمى «المطبق» (٢٣) .

### كيفية بناء الزهراء

أراد الناصر لدين الله أن يجعل بنيانه على أساس التقوى ، فأنشأ المسجد الجامع سابق الذكر ، الذي كان يعمل في بنائه من الصنائع المهرة كل يوم ألف نسمة ، منها ٣٠٠ بناء و ٢٠٠ نجار و ٥٠٠ من الأجراء وسائر الصنائع ، مما ساعد على إنجاز بنائه في ثمانية وأربعين يوماً (٢٤) وهي فترة إنجاز قصيرة لمشروع ضخم كهذا المسجد . وقد وضع المنبر في مكانه من هذا المسجد عند إكماله يوم الخميس لتسع بقين من شعبان سنة ٣٢٩ هـ - ٩٤١ م ، وأول من صلى فيه الناصر لدين الله ، وأول من خطب فيه القاضي أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي عيسى .

وقد ذكر بعض المؤرخين ، أن عبد الرحمن الناصر لدين الله بدأ عملية بناء الزهراء مستهل سنة ٣٢٥ هـ - ٩٣٧ م ، وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدل ٦٠٠٠ صخرة ، عدا الصخر المنصرف في التبليط . وكان يخدم في الزهراء كل يوم ١٤٠٠ بغل منها ٤٠٠ زواهل للناصر ومن دواب الأكرية الراتبة للخدمة ١٠٠٠ بغل لكل منها ثلاثة مثاقيل في الشهر ، وكان يرد الزهراء من الجير والبص في كل ثالث من الأيام ١١٠٠ حمل<sup>(٢٥)</sup> وكان يعمل في عمارة الزهراء كل يوم عشرة آلاف رجل<sup>(٢٦)</sup> وجلب إليها الرخام من عدد من البلدان مثل قرطاجنة وتونس وإفريقية ، وكان الذين يجلبونه ، عبد الله بن يونس عريف البنائين وحسن وعلي بن جعفر الاسكندراني ، وكان الناصر لدين الله يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير وعلي كل سارية بثمانية دنانير<sup>(٢٧)</sup> واشتملت مدينة الزهراء على ٤٣١٦ سارية ما بين كبيرة وصغيرة وحاملة ومحمولة ، فكان عدد مما جلب منها من إفريقية ١٠١٣ ومن روما ١٩ ، وأهدى إليه ملك القسطنطينية ١٤٠ وسائرهما مقاطع الأندلس في تركونة وغيرها ، والرخام المجزع من رية ، والأخضر والوردي من إفريقية . وعدد مصاريع أبواب الزهراء صغارها وكبارها ١٥١٣ باباً كلها ملبسة بالنحاس والحديد المموه .

وكان المسؤول عن عملية البناء ابن الناصر لدين الله وخليفته في الحكم ، الحكم المستنصر . ودامت أيام بناء هذه المدينة ٢٥ سنة على عهد الناصر ، وخلافة ابنه وهي خمسة عشر عاماً .

وقد ردت النفقة على هذه المدينة زمن الناصر بثلاثمئة ألف دينار كل عام ، أي سبعة ملايين ونصفاً زمن الناصر<sup>(٢٨)</sup> وقدروا مجموع النفقة في عهد الناصر وابنه بثمانين مئدياً وسبعة أقفزة من الدراهم القاسمية ، المدي مكيال يستوعب تسعة عشر صاعاً والصاع أربع حفنات بكفي الرجل ، الذي ليس بعظيم الكفين ولا صغيرهما<sup>(٢٩)</sup> .

وقد اتفق جميع الذين تحدثوا عن مدينة الزهراء ، على أنهم لم يروا أو يسمعوا بنظير للقصر الملكي الذي بني فيها ، من حيث روعة بنائه وفخامته ورونقه الآخاذ<sup>(٣٠)</sup> .

## الحياة في مدينة الزهراء

من خلال كتابات الذين تحدثوا عن الحياة في الزهراء ، يظهر مدى البذخ الزائد في ميدان خدمة الخليفة وحاشيته، فقد بلغ عدد الفتيان ، الذين كانوا في خدمة الخليفة وأهل بيته ١٣٧٥٠، مخصصاتهم من اللحم كل يوم عدا الدجاج والحجل وأنواع الطير والسماك والحوت ١٣٠٠٠ رطل . وعدة الحرم في قسم الحرم من قصر الزهراء ٦٣١٤ امرأة بين صغار وكبار وخدم . وعدد الصبيان الصقالبية ٣٧٨٧ ، وكان هؤلاء من حرم الخليفة - الى الجوارى والفتيان - يخلصون الخدمة والمحبة لباني الزهراء ، ويصرفون وجوه الرأي في إدخال السرور عليه مثال ذلك ، ما فعلته أم ولي عهد الناصر لدين الله ( الحكم ) عندما استدعى الناصر طبيبه لاجراء عملية فصد له ، فبينما هو جالس في بهو القصر ، أطل طائر زرزور وصعد على إناء من ذهب في المجلس وأنشد :

أيها الفاصد رفقا      بأمر المؤمنين  
إنما تفصد عرقا      فيه محيا العالمينا

فاستحسن الناصر ذلك وفرح به وسأل عن الذي علم الزرزور ذلك ، فذكر له أن السيدة الكبرى أم ولي العهد صنعت ذلك ، وأعدته لهذا الأمر ، فأهدى لها ما يزيد على ثلاثين ألف دينار (٣٢) .

بقيت الزهراء جنة الأندلس خلال عصر الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر وحفيده هشام المؤيد ، حتى أن الحاجب محمد بن أبي عامر سجن في مطبقها الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي زمن المؤيد .

ولكن عندما قامت الثورة على هذا الخليفة الضعيف سنة ٣٩٩ هـ - ١٠٠٩ م احتجاجاً على جعله ولاية العهد الى عبدالرحمن بن أبي عامر دون رجال بني أمية وجميع بيوت قريش ، هاجم الشعب قرطبة والزهراء ، فأسقطوا هشاماً، وأزالوا دولة بني عامر (٣٢) ، ونهبوا قصور الدولة ، ووصلت المنهوبات الى بغداد وغيرها من بلاد المشرق ، وبيعت في أسواقها (٣٤) .

غير أن مباني مدينة الزهراء ظلت قائمة بعد ذلك ، وكان أعيان المملكة في قرطبة يقصدونها للتنزه في رياضها وقصورها زمن المعتمد بن عباد ( ٤٦١ هـ - ٤٨٤ هـ ) . قال الفتح بن خاقان : « أخبرني الوزير الفقيه أبو الحسن بن سراج



أنه حضر مع الوزراء والكتاب بالزهراء في يوم غفل عنه الدهر فلم يرمقه في طرف، ولم يطرقه بصرف أرخت به المسرات عهدا ، وأبرزت له الأمانى جدها ، وأرشف في لهما ، وأباح للزائرين حماها . وما زالوا يتنقلون من قصر الى قصر ، ويبتذلون الكؤوس بجني مهصر ، ويتنقلون في تلك الغرفات ، ويتعاطون الكؤوس بين تلك الشرفات ، حتى استقلوا بالروض من بعد ما قضوا من تلك الآثار أوطاراً ، وأوقروا بالاعتبار قطاراً . فحلوا في ذرانك ربيع مفوفة بالأزهار ، مطرزة بالجداول والأنهار . والغصون عليهم كثكالي ينحن على خرابها ، وانقراض أطرابها . . . فبينما هم يتعاطون صغاراً وكباراً ، ويدبرونها أنساً واعتباراً ، إذا برسول المعتمد قد وافاهم برقة فيها :

حسد القصر فيكم الزهراء      ولعمري وعمركم ما أساء  
قد طلعت بها شمساً صباحاً      فاطلعوا عندنا بدوراً مساءً (٣٥)

وكانت الزهراء لا تزال منها بقايا من الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي (٣٦) المتوفى سنة ٦٣٨ هـ - ١٢٤١ م ، وقد زارها قبل أن يرحل عن الأندلس ، وقرأ شعراً في رثائها وهو :

ديار باكناف المغيب تلمّع      وما كان فيها ساكن وهي بلقع  
ينوح عليها الطير من كل جانب      فيصمت أحياناً وحيناً يرجع  
فخاطبت منها طائراً متفرداً      له شجن في القلب وهو مروع  
فقلت : على ماذا تنوح وتشتكي      فقال : على دهر مضى ليس يرجع

وما تبقى من آثارها ، أعمل فيها الأسباب معاول التخريب والتدمير ، فحفوا آثارها وقضوا على بقاياها ، منذ أن سقطت قرطبة في أيديهم خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي .

وبالجملة فإن مدينة الزهراء الأندلسية من المدن القليلة التي شيدها العرب في الأندلس ، وهي إضافة لذلك تعد من روائع ما أنتجته الهندسة العربية على الأرض الأوروبية خلال العصور الوسطى ، خططها وأبدعها عقل عربي متحضر في زمن كان فيه العرب يتطلعون دائماً الى زيادة مجدهم وإنتاجاتهم العلمية الراقية ، بعد أن سيطر تيار العلم على عقولهم وتفكيرهم وتصرفاتهم ، فارتفعوا عن الصغائر والترهات ، وظلوا هكذا حتى سقطوا على حين غرة وفي غفلة عن غدر

الزمن ، عندما عادوا للتمسك بالقبليّة والطائفية والعصبية، فاختلفوا وتدابروا وتقاتلوا ، الأمر الذي أسرع في سقوطهم، وما زالوا حتى اليوم يتخبطون في مستنقع السقوط هذا ، في وقت وصلت فيه الأمم التي كانت تحت أيديهم الى ذروة المجد والحضارة والتقدم .

وما ذكر مدينة الزهراء في هذا الوقت بالذات ، إلا مثال حي ، يعيدنا بسهولة ويسر الى بعض الماضي العربي الحافل بالمجد والعطاءات ، التي كانت نتيجة ايجابية من النتائج التي تمخضت عن تماسكنا ووحدتنا وسعينا لبناء ما ينفع الانسانية جمعاء . فما أوجنا نحن عرب هذا الزمن الى روح التعاون والتعاقد والوفاق ، لا لأجل السيطرة على شعوب الدنيا من جديد ، بل لنشارك ولو بجزء يسير في عملية بناء صرح الحضارة الانسانية المتسارعة النمو ، والتي نقف على هامشها متفرجين ، لا نملك عمل شيء ، بعد أن تقطعت أوصالنا بخناجر الفرقة والتشتت والاقليمية البغيضة .

★ ★ ★

#### □ الحواشي :

- ١ - المقرئ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ تحقيق احسان عباس دار صادر بيروت ١٩٦٨ ص ٢٥٢ وما بعدها وانظر أيضا ابن القوطية - تاريخ افتتاح الأندلس تحقيق عبدالله أنيس الطباعة بيروت ١٩٥٧ ص ١٢١ وما بعدها .
- ٢ - استمرت هذه الأعمال مدة سبعة عشر عاما ، وكانت سياسة الناصر لدين الله تختلف عن سياسة جده ، وتتطلب تخلي جميع الثائرين عن قواعدهم ، ودخولهم مع اتباعهم في خدمته ، وكانت خاتمة أعماله في هذا المجال دخوله حصن ببشتر قاعدة زعيم الثوار عمر بن حفصون .
- ٣ - سهيل زكار - مائة أوائل طبعة ٣ دمشق دار حسان ١٩٨٩ ص ٨٨ وما بعدها .  
Encyclopedia of Islam, Vol. 3, London 1971 - P. 312 .
- وانظر أيضا - ابن الأبار - الحلة السراء ج ١ تحقيق حسين مؤنس طبعة الشركة العربية للطباعة والنشر طبعة اولى القاهرة ١٩٦٣ ص ١٩٧ وما بعدها .
- ٤ - كان مؤنس قد قام بمحاولة من هذا القبيل سنة ٣١٧ هـ ولكنه فشل تحت ضغط الشعب ، فاضطر الى اطلاق سراح الخليفة واعادته الى الخلافة .
- ٥ - نعني بالدول المستقلة ، تلك التي قامت في المغرب العربي غداة سقوط الدولة الاموية ، وهي الدولة الاباضية الغارجية في تاهرت بالجزائر ، ودولة الاغالبة في تونس ، ودولة الادارسة في المغرب الأقصى .
- ٦ - كان ذلك سنة ٣١٦ هـ ، ومنذ ذلك الحين أصبح في العالم العربي ثلاث خلافتات اسلامية ، الفاطمية في المغرب ، والعباسية في بغداد ، والاموية في قرطبة بالأندلس .
- ٧ - ابن خلدون - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر المجلد ٦ دار الكتاب اللبناني ١٩٨٣ ص ٤٥٠ .
- ٨ - ابن عربي - محاضرة الإبرار ج ١ طبعة دار السعادة بالقاهرة ١٣٢٤ هـ ص ١٤٧ - ١٤٨ - المقرئ - نفح الطيب ج ١ تحقيق احسان عباس دار صادر بيروت ١٩٦٨ ص ٥٢٣ .



- ٩ - ابن عربي - المصدر السابق ص ١٤٩ المقرئ المصدر السابق ص ٥٢٣ .
- ١٠ - انظر عن مدى الاتساع في العمران ، المقرئ المصدر السابق ص ٥٢٦ .
- ١١ - أول الأمراء الأمويين في الأندلس حكم من سنة ١٢٨ - ١٧٢ هـ .
- ١٢ - كان للسطح المحدد قببية اتخذ لها الناصر قراميد ذهب وفضة أنفق عليها مالا جسيما . نقل الفتح بن خاقان في المطمح ص ٤٥ ، أن القاضي منذر بن سعيد البلوطي دخل على الناصر لدين الله فوعظه عن مثل ذلك فبكى الناصر وأمر بنقض سقف القببية وأعاد قرامدها ترابا .
- ١٣ - حكم الخليفة المستنصر من سنة ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ . وانظر حول مدينة الزهراء ابن خلكان - وفيات الأعيان ج ٥ تحقيق احسان عباس طبعة دار صادر بيروت ١٩٧٧ ص ٢٦ .
- ١٤ - ابن حيان - المقتبس في أخبار بلد الأندلس - تحقيق عبدالرحمن علي العجي طبعة دار الثقافة بيروت ١٩٦٥ ص ٢٨ ويظهر أنه كان المجلس الذي يقيم فيه الخليفة الاحتفالات والاستقبالات الرسمية .
- ١٥ - انظر علي أحمد . الأندلسيون والمغاربة طبعة دمشق دار طلاس ١٩٨٩ ص ٧٨ .
- ١٦ - المقرئ المصدر السابق ص ٥٢٧ .
- ١٧ - المقرئ المصدر السابق ص ٥٢٧ وانظر أيضا ابن الخطيب أعمال الأعلام فيمن يبيع قيل الاحتلام من ملوك الاسلام - الجزء المتعلق بالأندلس بتحقيق ليفي بروفنسال تحت عنوان تاريخ اسبانيا الاسلامية طبعة بيروت ١٩٥٦ ص ٢٨ .
- ١٨ - ابن غالب - نص أندلسي جديد - قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس تحقيق لطفي عبد البديع مطبعة ١٩٥٦ ص ٣٣ .
- ١٩ - النباهي - المرقبة العليا أو تاريخ قضاة الأندلس ص ٦٩ - ٧٠ دار الكتاب المصري ١٩٤٨ .
- ٢٠ - ابن الآبار - التكملة لكتاب الصلة ج ١ ص ٢٧٦ عني ينشره عزت العطار الحسيني طبعة القاهرة ١٩٥٦ ابن خلدون المصدر السابق ج ٤ ص ١٤٦ والمقرئ المصدر السابق ص ١٨٤ .
- ٢١ - الضبي - بغية الملتبس - طبعة دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧ ص ١٨ ابن عذاري - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ تحقيق ج. س. كولان وليفى بروفنسال طبعة بيروت المنقولة عن طبعة المحققين في ليدن ١٩٤٨ ص ٢٣٣ .
- ٢٢ - ابن الخطيب أعمال الأعلام ص ٣٨ والمقرئ المصدر السابق ص ٢٦٤ .
- ٢٣ - المقرئ - المصدر السابق ص ٥٢٧ وابن غالب المصدر السابق ص ٣٣ .
- ٢٤ - المقرئ - المصدر السابق ص ٥٦٧ وابن غالب المصدر السابق ص ٣١ .
- ٢٥ - الذهبي - العبر في خبر من غير ج ٢ تحقيق أبو هاجر زغلول طبعة دار الكتب العلمية بيروت طبعة أولى ١٩٨٥ ص ٨٥ وابن غالب المصدر السابق ص ٣٢ .
- ٢٦ - المقرئ - المصدر السابق ص ٥٦٧ وابن غالب المصدر السابق ص ٣٢ .
- ٢٧ - المقرئ المصدر السابق ص ٥٦٨ وابن غالب المصدر السابق ص ٣١ وما بعدها .
- ٢٨ - حكم الناصر الأندلس حوالي خمسين عاما من سنة ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ .
- ٢٩ - ابن غالب المصدر السابق ص ٣١ وما بعدها .
- ٣٠ - المقرئ المصدر السابق ص ٥٦٤ ابن خلكان المصدر السابق ص ٢٦ .
- ٣١ - هم مجموعة من سكان البلقان اليوم ، وإن كان أكثرهم من دولة يوغسلافيا ، التي تفتتت وحدتها مؤخرا ، اعتمد عليهم الناصر لدين الله بصورة لافتة منذ اعلانه الخلافة ، وسيلعبون دورا مهما في أحداث القصر فيما بعد .
- ٣٢ - ابن غالب المصدر السابق ص ٣٢ وما بعدها والمقرئ المصدر السابق ص ٥٢٦ .
- ٣٣ - ابن الخطيب أعمال الأعلام ص ٥٨ و ٨٨ و ٨٩ وابن عذاري المصدر السابق ج ٣ ص ١٥ - ٢١ .
- ٣٤ - انظر المقرئ المصدر السابق ص ٥٦٧ .
- ٣٥ - ابن خاقان - قلائد العقبان - طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ - ص ١٠ - ١١ .
- ٣٦ - انظر عنه تفاصيل وافية الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام ص ١٧٣ وما بعدها . المقرئ المصدر السابق ص ٥٢٣ .